**المشاركة الأثنوجرافي**

يلتزم الأثنوجرافيون بالنزول إلى الميدان الحقيقي الذي ينوون دراسته وان يقتربوا ما أمكنهم من أنشطة الآخرين وخبراتهم اليومية . ويتطلب هذا الاقتراب في حده الأدنى درجة من القرب الجسدي والاجتماعي من مجالات الحياة اليومية للناس ولأنشطتهم . ويتعين على الباحث الميداني أن يكون قادر على اتخاذ أوضاع في قلب المواقع والأحداث الرئيسية في حياة الناس لكي يلاحظها ويفهمها . ولكن ( الاقتراب) يتضمن مكونا آخر له دلالة ابعد وأكثر أهمية فالأثنوجرافي ينشد الانغماس العميق في عوالم الآخرين لكي يفهم خبراتهم المهمة وذات المغزى . ويستطيع الباحث الميداني ,بواسطة هذا الانغماس أن يرى من الداخل كيف يمارس الناس حياتهم ,وكيف يؤدون أنشطتهم المعتادة على مدار اليوم ,وما الذي يعدونه ذا معنى ,وكيف يترجمون ذلك في أفعالهم . وهكذا فان الانغماس يمنح المشتغل بالعمل الميداني إمكانية الانخراط في تيار حياة الناس ,ويزيد من حساسيته للتفاعل والعمل معهم .

كما يلاحظ – فضلا عن ذلك – أن هذا الانغماس يمكن الباحث الميداني من أن يعايش بنفسه – مباشرة وبقوة – الروتين والظروف المعتادة التي يمارس الناس في ظلها حياتهم اليومية العادية ,والقيود والضغوط التي تتعرض لها هذه الحياة . ويصر جوفمان (Goffman1989:125)بقوة على أن البحث الميداني يعني (إخضاع نفسك وبدنك وشخصيتك ووضعك الاجتماعي ,لمجموعة الظروف والملابسات التي تؤثر في حياة مجموعة من الأفراد,بحيث يصبح بوسعك أن تنفذ جسديا وايكولوجيا إلى نطاق استجاباتهم لوضعهم الاجتماعي ,أو أوضاع عملهم ,أو وضعهم ألسلالي ) . ومن ثم فان الانغماس يعني أمرين في البحث الميداني هما أن تكون مع الناس الآخرين لترى كيف يستجيبون للأحداث لحظة وقوعها ,وان يعايش الباحث بنفسه هذه الأحداث والظروف التي تؤدي إلى حدوثها .

ويبدو جليا ,أن الانغماس الأثنوجرافي هو الذي يحول دون أجراء البحث الميداني حيث يكون ملاحظا سلبيا منفصلا عن الناس ,فالباحث الميداني لا يستطيع أن يكون قريبا من حياة الأفراد الذين يدرسهم إلا عندما يشارك بايجابية في أمور حياتهم يوما بيوم .كما أن مثل هذه المشاركة تتطلب حتما درجة ما من إعادة التنشئة الاجتماعية[[1]](#footnote-1) فالباحث الميداني عندما يشارك جماعة من الناس حياتهم اليومية فانه يدخل في مصفوفة المعاني لدى مبحوثيه , ويشاركهم أنشطتهم المنظمة ,ويشعر بالالتزام بقواعدهم الخلقية (Wax1980:272-73)ويستطيع الباحث من خلال مشاركته الكاملة والإنسانية –قدر الاستطاعة –في طريقة أخرى للحياة ,أن يعرف ما هو مطلوب منه لكي يصبح عضوا في هذا العالم الجديد ,وان يعيش الأحداث والمعاني بطرق تقترب من خبرات أطرافها .والحقيقة أن بعض الأثنوجرافيون يسعون إلى القيام بالبحث الميداني وذلك بان يفعلوا وان يصبحوا –بقدر الإمكان – كل ما يتعين عليهم أيا كان الموضوع الذي يدرسونه , فالأثنوجرافيون ,مثلا , أصبحوا مهرة في أداء الأنشطة التي يسعون إلى فهمها (nch1985 ;Diamond 1993 ) أو يشاركون –عن إيمان واقتناع في أنشطة الكنائس أو الجماعات الدينية (Jules-Rosette 1975 ;Rochford 1985 )على أساس أنهم عندما يصحبون أعضاء في هذه المجموعات فأنهم يكتسبون قدرة على رؤية وفهم تلك الجماعات وأنشطتها . كما أن بعض القرويين قد يسندون دورا معينا لباحثة ميدانية ,كأن تكون أختا أو أما في أسرة ممتدة ,مما يلزمها بان تشارك وان تعيد تنشئة نفسها اجتماعيا حتى تستطيع الوفاء بما تتوقعه منها الجماعة المحلية Fretzn.d)) . ولا يستطيع المشتغل بالميدان وهو سيدرس الآخرين من خلال المشاركة الايجابية في حياتهم وأنشطتهم ,أن يحاول البقاء على الهامش متجنبا أي مخالفة[[2]](#footnote-2).

فلا يوجد باحث ميداني يمكنه أن يكون محايدا تماما . وملاحظا منفصلا ,وخارجا ومستقلا عن الظاهرة التي يلاحظها Pollner and Emerson 1988 ولكنا نؤكد مع ذلك أن الباحث الميداني عندما ينخرط في حياة المبحوثين وشؤونهم ,فان منظوره الخاص يبقى مظفرا مع الظاهرة التي لا تملك خصائص موضوعية مستقلة عن منظور القائم بالملاحظة ومنهاجه Mishler1979:10 . ولا يمكن للأثنوجرافي أن يستوعب كل شيء ولكنه يستطيع من خللا معايشته لأفراد المجتمع أن يطور منظورات معينة بانخراطه في بعض الأنشطة والعلاقات أكثر من سواها . وعلاوة على هذا فان الباحث الأثنوجرافي قد يتعرض لتغيير أولوياته ووجهات نظره ,ذلك أن إقامة علاقات مع المبحوثين قد تخضع لاعتبارات سياسية محلية خاط[[3]](#footnote-3). والخلاصة أنها ليست مهمة الأثنوجرافي أن يحدد الحقيقة وإنما عليه أن يكشف عن الحقائق المتعددة التي تتجلى في حياة الآخرين .

وعلاوة على هذا , فان وجود الباحث الأثنوجرافي في الميدان ستكون له حتما بعض المعاني والتداعيات بالنسبة لمجريات الأحداث ,حيث انه لا بد وان يتفاعل مع المبحوثين مما يترتب عليه بالضرورة أن يؤثر فيهم . ويرتبط الحضور المؤثر للباحث غالبا بتأثيرات ردود الفعل (ويقصد بها تأثير مشاركة على كيفية سلوك الأعضاء وحديثهم ) ويتعين ألا ينظر أليها على أنها تفسد ما يلاحظه الباحث وما يقف عليه من معلومات .بل أن هذه التأثيرات هي المصدر الحقيقي لتلك المعلومات والملاحظة (Clarke1975;99) ولا تؤدي الصلات التي تربط بين الباحث الميداني أفراد مجتمع الدراسة إلى إحداث إرباك أو تغيير جسيم في الأنماط المتبعة للتفاعل الاجتماعي بقدر ما تكشف عن الأسس التي يقيم عليها الناس علاقاتهم الاجتماعية والمصطلحات التي يستخدمونها لوصفها والتعبير عنها . فعلى سبيل المثال ,في قرية يرتبط فيها الناس بروابط القرابة ,قد يتقبل الناس باحثا ميدانيا ويدمجونه في عائلة معينة وينسبون إليه مصطلحا قرابيا يوضح حقوقه ومسؤولياته تجاه الآخرين . أن العلاقات المباشرة التي يقيمها الباحث الميداني مع أفراد مجتمع بحثه لانتقص مما يمكن جمعه من معلومات , وإنما يمكن أن تزوده بمفاتيح مهمة لفتح مغاليق كثير من الأمور حيث يصبح بإمكانه أن يتعرف ويفهم الأسس المعنوية الضمنية (المستترة ) التي لا تكون متاحة غالبا من خلال أساليب الملاحظة آو المقابلة وحدها , ومعنى هذا انه يتعين على الباحث الأثنوجرافي آلا ينظر إلى ردود الفعل من جانب المبحوثين على أنها أمور سلبية يجب التحكم فيها بعناية أو تجنبها ,وإنما عليه أن يصبح حساسا ومدركا للكيفية التي ينظر بها الآخرون إليه ويتعاملون معه[[4]](#footnote-4) . ومن شان تقدير التداعيات الحتمية لوجود الباحث الميداني أن ينزع أي ميزة خاصة عن أدائه لعمله متخذا دور الملاحظ الهامشي المتباعد0(المنفصل) غير المتطفل والتي طالما كانت تجسد المثل الأعلى الضمني للباحث في البحث الميداني ويؤيد كثير من الاثنوجرافيين المعاصرين ادوار المشاركة الواسعة والايجابية Adler,adler,andRochford1986))التي تؤدي بها الباحث فعلا الأنشطة المحورية في حياة المبحوثين 0 وطبقا لهذه النظرية فان تحمل بعض المسؤوليات الحقيقية عن أداء بعض الوظائف والمهام الحيوية على النحو وما يوجد في التدريب المقيم على أداء الخدمات العامة من شانه أن يتيح للباحث فرصا خاصة كي يكون قريبا ومشاركا وملما بخبرات حياة في المجتمع لم يكن يعلم عنه شيئا وان كلا من المتدرب المقيم الذي يتحمل مسؤوليات حقيقية في عمل أو الباحث الذي يشارك مشاركة ايجابية في حياة القرية, ينغمس في أنشطة محلية ويتلقى تنشئة اجتماعية مناسبة لممارسة تلك الأنشطة ويصبح قادرا على اكتساب التعاطف مع الأساليب المحلية للسلوك والإحساس وأخيرا فان المشاركة الوثيقة والمستمرة في حياة الآخرين تحفز إلى فهم البنية الحقيقية للحياة الاجتماعية من خلال انسياب العمليات المختلفة كما إن الباحث الميداني يرى من خلال المشاركة المباشرة واللصيقة كيف يتصدى الناس لشتى أشكال الفوضى وعدم اليقين وكيف تتولد المعاني أثناء الأحاديث والممارسات الجمعية وكيف تتغير صور الفهم والتفسير بمرور الوقت واستنادا إلى هذه الطرق جميعا فان من شان اقتراب الباحث الميداني من حياة الناس وأنشطتهم اليومية أن يعلى من حساسيته للحياة الاجتماعية كعملية

1. .إعادة التنشئة Resocialization باب مهم من أبواب دراسة التنشئة الاجتماعية ,وتعنى إعادة تعلم المعايير والجزاءات الثقافية عند العودة إلى النظام الاجتماعي من قبل أولئك الذين تركوا هذا النظام طوعا أو كرها (مثل المسجونين الخارجين إلى الحياة العادية , أو العائدين من سفر خارجي ) حتى يمكنهم أن يصبحوا مقبولين مرة أخرى وبصورة كاملة داخل النظام , وتسمى عملية تكيف الباحث الميداني المقيم في مجتمع بحثه أيضا إعادة تنشئة اجتماعية له حيث يتوجب عليه استيعاب معايير ألجماعه التي سيعيش بينها وان يفهم خريطة الأدوار الاجتماعية , ليعرف طبيعة دوره ,وما يرتبط به من وظائف وتوقعات .(المرجع ) [↑](#footnote-ref-1)
2. . **حرفيا : إن يبقى كذبابة على الحائط .** [↑](#footnote-ref-2)
3. .لا يمكن أن تجري إقامة علاقات بين الباحث وأفراد - أو جماعات – من مجتمع بحثه بطريقة تلقائية وعفوية ,وإنما يتعين أن تخضع للحساب وتقدير أثرها على مسار بحثه ,فإقامة علاقة من امرأة أو عدة نساء في مجتمع محافظ أمر مدمر لعلاقاته بالجماعة الأكبر . وارتباطه بأشخاص منبوذين من المجتمع المحلي . أو تلك سمعتهم الألسنة ,أو مختلفي العقيدة أو الأعمار ...الخ كل ذلك مما يتعين على الباحث أن يزنه جيدا لكي لا يتأثر بالسلب على عمله والقاعدة العامة أن تكتسي علاقة الباحث بأفراد مجتمع بحثه طابعا إنسانيا اقرب إلى الحياد فالنفور الواضح أو التعاطف الشديد وإسقاط الكلفة تماما كلاهما يسئ إلى عمله وقد يتسبب في إخفاقه وتسجل كتب البحث الاجتماعي شواهد عديدة على ذالك انظر مثلا محمد ألجواهري طرق البحث الاجتماعي ط6 القاهرة 2009

(المراجع ) [↑](#footnote-ref-3)
4. . مع ذلك تؤكد كتب المنهج في العلوم الاجتماعية أن الملاحظة الظاهرة تنطوي دائما على بعض عناصر تشويه الموقف (الذي تقوم بملاحظته )بسبب وجود الباحث داخل هذا الموقف ولو قام الباحث بالمشاركة فمارس الملاحظة المشاركة –فقد يسلك على نحو من شأنه أن يغير من مسار الموقف ونتائجه . بل أن مجرد وجوده كملاحظ منفصل غير مشارك يمكن أن يمنع احد أنماط التفاعل الاجتماعي الذي كان يمكن أن يظهر في حالة عدم وجوده ولينتصر حديثا حميما بين فتاة وخطيبها في داخل سيارة واقفة هل نستطيع أن ندرس أحاديث هذين الخطيبين بوضع ملاحظ في المقعد الخلفي للسيارة راجع المزيد في كتابنا السابق الإشارة إليه عن طرق البحث الاجتماعي والمراجع الواردة هناك (المراجع ) [↑](#footnote-ref-4)